لوحة من خرق القماش

نلتقي لنتجدد

الإبرة والخيط بدل الفرشاة

تدوير الأقمشة حرفة تراثية تعود فنّا إلى سوريا

فريق من الفنانات والطبيبات وربات البيوت يبدع في مشروع خلايا النحل

عندما تبدع المرأة يكون للحياة شكل آخر، فهي الكائن الذي لا حدود لطاقته، وهي بما تمتلكه من مواهب وقدرات تستطيع أن تكيف كل الظروف لإيجاد حلول لمصاعب الحياة اليومية. فهي القادرة على أن تكون لينة في وقت وقوية في وقت آخر. ففي سوريا التقت مجموعة من النساء ليشكلن فريقا قاوم الحرب بفن التدوير، وكنّ مصرّات على مواصلة إرادة الحياة، فكان مشروعهن "خلايا النحل" وسلاحهن إبرة وخيط.

نضال قوشحة
كاتب سوري

دمشق – عبر التاريخ، كان للمرأة دور في بناء المجتمع الإنساني، وكانت شريكا للرجل في تحمل الأعباء، ومما كانت تقوم به الأمهات والجدات أنهن يجمعن ما يزيد عن الحاجة ويتلف من الملابس والأقمشة، يقمن بتقطيعه ثم إعادة تصنيعه ليكون غرضا جديدا يعيش في البيت سنوات أخرى.

قمصان وسترات شتوية وأغطية، يمكن أن تتحول إلى وسائد أو بساط أو حشوات في لحف سميكة تساهم في رد برد الشتاء، بل قد تتحوّل إلى لوحات جدارية تزيّن الغرف.

ومع بداية سنوات الحرب في سوريا، والظروف المعيشية الصعبة التي عاشتها عائلات سورية نتيجة عمليات التهجير والنزوح، راودت مجموعة من النساء فكرة إحياء حرفة تدوير الأقمشة لمقاومة تلك الظروف العصيبة.

كانت البداية مع طبيبة الأسنان سحر البصير، التي قامت بتنفيذ الفكرة وأقامت المجموعة في المركز الثقافي العربي – أبورمانة معرضها الفني الأخير الذي تواصل على مدى عدة أيام واختُتم في الثامن والعشرين من أكتوبر.

تقول صاحبة الفكرة والمسؤولة عن المعرض سحر البصير، "كان الهدف الأول من المشروع دعم المرأة السورية في ظل ظروف الحرب لتجد لها موردا ماليا تعتاش منه بعيدا عن تلقي المساعدات، فعندما تكون المرأة منتجة ستكون أقوى".

تدوير القماش أمر معروف في التراث السوري، كانت الجدات يقمن به منذ زمن بعيد وله مسميات مختلفة حسب المنطقة، تقول سحر "في مشروعنا 'خلايا النحل' أردنا تجديد هذا النشاط المليء بالمعاني الإنسانية، كونه يقدم خدمة اجتماعية كبرى لكل أطرافه".

وتؤكد في حديثها "حرصت العديد من النساء على الانضمام إلى المشروع، نحن نتطور يوما بعد آخر، ونثري مفاصل عملنا دائما بكوادر وأفكار جديدة، ما زال يلزمنا جهد في التسويق، ونحن نعمل على تطويره دائما، لكي تعود الفائدة على جميع المشاركات، ويحقق المشروع هدفه الأبعد في إحياء حرفة قديمة وأصيلة وتكوين مورد مالي أهلي وإعطائها الشكل القانوني المناسب لكي تكون فاعلة في المجتمع السوري، وسمّت المشروع "خلايا النحل".

أول التحديات أن تستخدم النسوة في أعمالهن الإبرة والخيط فقط، فممنوع استخدام أي آلة في عملية إعادة التدوير.

وبدأت النسوة بالتجمع والعمل بإمكانيات بسيطة، فكانت البداية في بعض مراكز الإيواء في دمشق، ثم تطور النشاط لاحقا، وبدأت أولى الورشات في قاعة تدريبية في أحد المراكز الثقافية الحكومية، وتتالت الدورات وعدد ورشات العمل حتى صارت للمجموعة فروع في أكثر من منطقة ومحافظة.

وأقامت المجموعة في المركز الثقافي العربي – أبورمانة معرضها الفني الأخير الذي تواصل على مدى عدة أيام واختُتم في الثامن والعشرين من أكتوبر.

تقول صاحبة الفكرة والمسؤولة عن المعرض سحر البصير، "كان الهدف الأول من المشروع دعم المرأة السورية في ظل ظروف الحرب لتجد لها موردا ماليا تعتاش منه بعيدا عن تلقي المساعدات، فعندما تكون المرأة منتجة ستكون أقوى".

تدوير القماش أمر معروف في التراث السوري، كانت الجدات يقمن به منذ زمن بعيد وله مسميات مختلفة حسب المنطقة، تقول سحر "في مشروعنا 'خلايا النحل' أردنا تجديد هذا النشاط المليء بالمعاني الإنسانية، كونه يقدم خدمة اجتماعية كبرى لكل أطرافه".

وتؤكد في حديثها "حرصت العديد من النساء على الانضمام إلى المشروع، نحن نتطور يوما بعد آخر، ونثري مفاصل عملنا دائما بكوادر وأفكار جديدة، ما زال يلزمنا جهد في التسويق، ونحن نعمل على تطويره دائما، لكي تعود الفائدة على جميع المشاركات، ويحقق المشروع هدفه الأبعد في إحياء حرفة قديمة وأصيلة وتكوين مورد مالي أهلي مجتمعي قادر على أن يساهم في دعم الاقتصاد".

وعن البدايات التي ولد منها المشروع والظروف التي أحاطت به، تقول طبيبة الأسنان سحر "البداية كانت من خلال العمل على شغل اليد، وكان ذلك في أول الأزمة في سوريا، ثم انضممت إلى فعالية 'جدايل سورية'، حيث كنا نقوم بعمل لوحات جماعية كبيرة مصنوعة بالإبرة والخيط، مضيفين إليها شعر السيدات المقصوص، ثم تطورت الفكرة من خلال الجولات في مراكز الإيواء ومشاهدة أحوال النساء وأطفالهن، فوجدت أن فكرة العمل على تصنيع اللحاف والدمى ضروري، لأن النساء كن بحاجة إليها هن وأطفالهن".

وتضم المجموعة نساء من بيئات وأعمار مختلفة، فهنالك سيدة كانت مترجمة في السفارة الفرنسية بدمشق، وسيدة أخرى كانت مدرّسة، وبعضهن ربات بيوت وطبيبات وفنانات.

ما جمع هؤلاء هو الرغبة في القيام بنشاط إنساني بعيدا عن إضاعة الوقت والجهد في التنقل بين البيوت في زيارات نهارية عديمة الجدوى أو قضاء أوقات طويلة أمام شاشات التلفزيون. وتؤكد المشاركات أن ما يقمن به من عمل أعاد لهن قدرا كبيرا من النشاط بعد أن وصلن إلى سن التقاعد الوظيفي، وكأن روح الشباب ما زالت متوقدة فيهن، كما تؤكد أنهن يمتلكن الكثير من الطموح في المشروع للوصول به إلى آفاق أرحب.

خلال عمرها الذي يقل عن عشر سنوات بقليل، استطاعت هذه المجموعة أن تشكل حالة اجتماعية هامة في المشهد الدمشقي خصوصا والسوري عموما، فمن يقارن بين بدايات المجموعة وحاضرها، يلمس حجم التطور الكبير الذي شهده عملها، وصارت مجموعة معروفة من قبل المجتمع السوري.

المعرض الأخير الذي أقامته شد جمهورا عريضا من المتابعين، حيث زاره مهندسو ديكور وفنانون تشكيليون ونقاد وصحافيون، كذلك حضر جمهور عادي غير مختص، كما تابع الإعلام اهتمامه بالمعرض والمجموعة بشكل لافت. ويبدو جليا أن لهذا المشروع آفاقا كبيرة في المجتمع السوري.

ويبدو مشروع "خلايا النحل" طموحا من خلال معرفة بعض جوانبه الاقتصادية؛ فمن خلال طبيعة مصدر مواده الأولية يبدو أن سعر التكلفة زهيد ولا يستهلك المشروع إلا القليل من الخيط فحسب، ولكن القيمة الكبرى تكون فيه للجهد الفني الذي تقدمه المبدعة وهو الذي تتراوح أرقامه بين أثر وآخر حسب حجمه وساعات العمل التي استغرقها.

وفي كل الحالات فإن الأرقام المالية التي تحوم حولها أسعار بعض المنتجات لا تتجاوز المئة دولار، وهو رقم بسيط بالنسبة إلى الجهد الكبير الذي تبذله المشاركات في العمل الشاق والطويل، وهنالك بعض المنتجات البسيطة التي يقل ثمنها عن ذلك.

ورغم عدم وجود موارد مالية مجزية حتى الآن تبدو المشاركات مصممات على متابعة هذا المسار الذي يزداد رسوخا يوما بعد آخر وهو الذي يقدم لهن على الأقل ما يملأ الفراغ بالعمل.

معرض «خلايا النحل» الأخير شد جمهورا عريضا من مهندسي ديكور وفنانين وصحافيين، كذلك حضر جمهور عادي غير مختص

«الأغباني».. تطريز دمشقي يزين الأجساد والبيوت

دمشق – الأغباني حرفة أبدعتها أنامل السوريين رجالا ونساء، حيث كانوا يطرّزون القماش بإحساسهم الفني المهني الذي أبدعوا من خلاله أجمل المطرّزات التي كانوا يزركشون بها العباءات الشرقية وأغطية الطاولات وستائر النوافذ إضافة إلى بعض المفروشات القديمة منذ أكثر من 500عام، ورغم قلة حرفيي الأغباني فإنهم ما زالوا يحافظون على طابعه الشرقي مع مواكبته للعصر.

بعض الحرفيين المهرة كانوا يقومون بالتطريز مباشرة دون وضع رسوم على القماش باستخدام القالب الخشبي الصغير

قال محمود حوراني أحد حرفيي تطريز الأغباني، إن الدمشقيين القدامى كانوا يطرّزون المفارش والعمائم ولباس العريس ولفة المولود حديثا، إضافة إلى الستائر ومفارش الطاولات والأسرّة، والعباءات والعمائم، وغيرها من بقية مطرّزات الأغباني.

وكان الأغباني يُصنع قديما من الحرير الطبيعي الموجود بكثرة في سوريا، وفق زخرفات ورسوم مدهشة، ولكن مع الزمن أصبح الحرفيّ يستخدم القماش القطني السوري عالي الجودة والمطرّز بخيط من الحرير، وبعد حياكته يُطرّزه بخيوط ذهبية وفضية. وكان الصنّاع الدمشقيون ينسجون القماش على الأنوال اليدوية على شكل أثواب يسمى الواحد منها "سلك أغباني"، وكانوا يجعلون فاصلا كل 150 سم وعرض هذا الفاصل 8 سم.

وعندما ينتهي الثوب يقصّون هذه القطع، وترسل القطعة إلى الرسم، وتتألف الرسوم من أشكال نباتية وزخارف عربية، وتكثر الورود والأزهار والأغصان حيث تكون هذه الرسوم محفورة على قطع خشبية يُدفع بها على القماش المراد شغله بالأغباني.

وبعدها يشدون القطعة على "طارة" خشبية دائرية، وهنا يبدأ التطريز، وتقوم به النسوة في بيوتهن حيث يعمدن إلى شغل الرسوم بخيطان حريرية وإبر خاصة يمررنها من وجه القماش إلى العكس، وتكون خيوط التطريز بألوان عديدة، منها الذهبي والأخضر والأزرق والبيج والعسلي.

هشام النقطة شيخ كار (عميد) حرفة الأغباني وأحد القلائل الذين ما زالوا يملكون ورشة لتصنيعه وعرضه في محلات سوق مدحت باشا يقول، إن "الأغباني حرفة يدوية بالكامل تصنع من خيوط الحرير الطبيعي والذهب والقصب وتطرّز بالإبرة تطريزات نافرة عن القماش بخيوط مختلفة الألوان، وهذا ما يميز الأغباني عن الأقمشة الدمشقية الأخرى كالبروكار ومصنوعات الحرير بأنواعها".

ويتميز الأغباني حسب النقطة بألوانه السبعة وأسماء رسوماته حيث لكل تطريزة أغباني اسم مثل "سقف القاعة" و"دقة اللبرة" و"السلطان" و"الضامة" و"اللوزة" و"رسمة لام ألف" التي كانت تطرز على العمائم ليلبسها وجهاء دمشق والعلماء، لافتا إلى أن القطعة تحتاج نحو الشهر لإنجازها، لذلك كانت العائلات الدمشقية تحجز الجهاز لعروسها قبل فترة طويلة من موعد العرس حتى يكون الجهاز كاملا من الملابس ومجموعة الأسرة والمفارش وهي عادة دمشقية قديمة تعود إلى مئات السنين. وتقول مدربة التطريز غادة جراد، "إن تلك الرسومات تطبع على القماش باستخدام قالب خشبي صغير يمرر على القماش عدة مرات إلا أن بعض الحرفيين المهرة كانوا يطرّزون مباشرة على القماش دون وضع رسوم".

وبيّن شيخ الكار النقطة لوكالة الأنباء السورية، أنه ورث الحرفة عن أجداده حيث يقوم بتصميم الرسوم والنقوش على القماش الذي يكون إما من الحرير وإما من القطن ويتم تفصيله على نول عربي يدعى "روزا" ثم تحاك أطرافه، لتبدأ مرحلة طبع الرسم على قوالب من خشب، ويوضع الصمغ العربي مع النيلة على قوالب الخشب فيطبع على القماش، إثرها تبدأ مرحلة التطريز بخيوط الحرير والقصب التي تقوم بها عاملات مختصات، ثم تأتي مرحلة الغسيل والكيّ بآلة "المنغنا" اليدوية حتى تصبح القطعة جاهزة.

وواكب حرفيو الأغباني القلائل العصر حيث أدخلوا مطرّزات حرفتهم على الجلديات مثل الحقائب والأحذية والمعاطف الجلدية ما ساعد في المحافظة على المهنة، لتصبح اليوم قائمة الهدايا التي يحملها السوريون إلى أقربائهم في بلاد المهجر، الذين يحنون إلى دمشق ويتباهون بأي هدية تحمل البصمة السورية ويفضلونها على غيرها، لأنها تحمل عبق وأصالة دمشق.

قال محمود حوراني، أحد حرفيي تطريز الأغباني، "طوّر السوريون آلة تطريز الأغباني التي كانت في بداية الحرفة يدوية تعمل من خلال ذراع يدوية، ثم أضافوا إليها "السير"، ومحركا كهربائيا حتى أصبحت أخيرا آلة كهربائية".

من المؤكد أن مطرزات الأغباني خرجت من دمشق إلى العالم بأيدي حرفييها السوريين ولم تزل دمشق تصدر منتجات الأغباني إلى جميع أنحاء العالم، ويشيد حوراني بدور المعارض التي تقام في الخارج والتي ساهمت في التعريف بهذه الحرفة الدمشقية بامتياز.

وأثنى وسيم دبانة أحد حرفيي الأغباني على دور الحرفيين من أبناء الكار الذين أضافوا مطرزاتهم الجميلة إلى حمالات الهواتف النقالة وهذه رسالة تدل على مواكبة هذه الحرفة للعصر.

ورغم أن حرفة الأغباني تطوّرت كثيرا في السنوات الأخيرة، وأصبحت تستخدم أجهزة الكمبيوتر، وتعتمد على الآلات الحديثة ومصنفات الصور الجديدة (الكاتالوغات)، فإن هذا التطور لم يستطع أن يلغي دَوْر اليد العاملة أو التطريز اليدوي.

التكنولوجيا لا تلغي إبداع الأنامل